

عمارة الأضرحة الرومانية بالجزائر

د. عمروس فريدة

أستاذة محاضرة

معهد الآثار

جامعة الجزائر 2

يعتبر البحث حول المعالم الجنائزية التي تعود للفترة الرومانية بالجزائر أحد المواضيع الجديدة بالاهتمام ويمكن إدراجه ضمن إطار البحث عن تاريخ الفئات الاجتماعية القديمة وحياتها اليومية.

إن تنوع وتوزيع هذه الشواهد الأثرية بالجزائر يبين درجة تمركز الاستيطان الروماني في شمال إفريقيا وهذا التنوع أدى إلى الكشف عن أشكال معالم متنوعة ومنتشرة عبر كل أراضي المقاطعات الرومانية بإفريقيا.

لقد أعطى الرومان أهمية كبيرة لاختيار موقع الدفن، ومن خلال هذا الموقع يقومون بتخليد أمواتهم. وكانت هذه الأضرحة تتواجد خارج المدن وتتنوع على مختلف المناطق الريفية أو تتوسط مساحات جنائزية أو تطل على الطرقات. وشيد عدد كبير منها من طرف أثرياء محليين وداخل ممتلكاتهم، وشيد بعضها من طرف أمراء أمازيغ والذين تعرفنا عليهم من خلال أسمائهم مثل ضريح تزينت الذي يقع على بعد 30 كم جنوب غرب مدينة تبسة والذي يحمل نقيشة تبين أن مشيدها مواطن محلي حسب اسمه « Aumasgar Smargasae ».

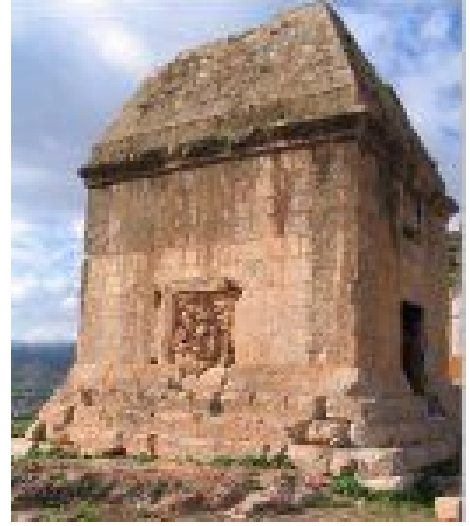
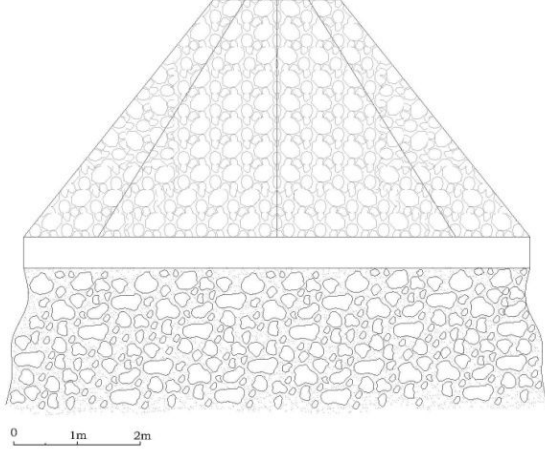
تتميز معظم المعالم بمخطط مربع أو مستطيل الشكل، وتترجع على قاعدة مربعة الشكل تبنى على أساس يضمن ثباتها وديمومتها، ويختلف عمق الأساس حسب طبيعة أرضية المبنى (هشة أو رملية أو حجرية وعلوه وثقله). وأشار فيتروفيوس¹ بخصوص تقنية بناء الأساسات ما يلي: يجب حفر الأساسات إلى غاية الوصول إلى الأرضية الصلبة التي باستطاعتها تحمل البناء ويمثل الصخر أحسن الأرضيات، وهذا ما بحث عنه الإغريق ومن بعد الرومان .

ويجب أن يكون عرض الأساس أكبر من عرض الجدار لأن المدامك السفلى تتحمل ثقل المبنى. وإذا لم نصل إلى الصخر بعد عمق كبير نقوم ببناء قاعدة حجرية.

ويمكن تصنيف هذه الأضرحة إلى مجموعتين: مجموعة الأضرحة البسيطة ومجموعة الأضرحة ذات الطابق العلوي.

¹ - Vitruve, De architectura ,II-9.

فالأضرحة البسيطة تتميز باحتوائها على غرف جنازية سردابية، وهذه الميزة تخص مجموعة المعالم المتوجة بسقف على شكل هرم، ونذكر على سبيل المثال ضريح أقبو (الصورة 01) بولاية بجاية وبعض أضرحة مدينة شرشال (الشكل 01)



الشكل 01: الواجهة الأمامية لضريح رأس الأحمر.

الصورة 01: الشكل العام لضريح أقبو.

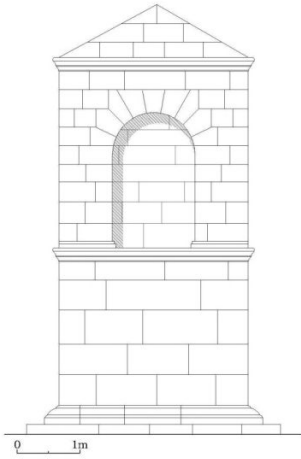
حيث نجد السقف مبني من الرضم أو من الحجارة المنحوتة، وهذه المعالم تشبه معالم أمريت المشهورة بفينيقيا والتي تؤرخ بالقرن الرابع قبل الميلاد².

وكانت تمثل النمط الأكثر انتشار في تونس وليبيا، ولم يبق منها في الجزائر إلا آثار بسيطة، والتي من خلالها استطاع الباحث قزال³ معرفة شكلها العام ومكونات سقفها وقال في هذا الصدد: "نلاحظ على جدرانها الخارجية انحناءات منتظمة تجعلنا ربما نفكر أنها تحمل جزءا علويا على شكل هرم".

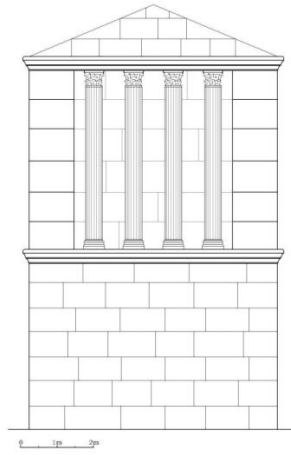
أما المعالم التي تتوج بسقف سنمي الشكل فيكون القبر على مستوى الأرض وداخل الغرفة الجنازية. وتتميز هذه المعالم بجبهات ثلاثية تشبه معبد كلاسيكي. نجد هذا النوع من السقف بضريح مداوروش وضريح مورسط، وضريح رأس العيون (الصورة 02 والشكل 03 و 04). أما في ضريح كيسا بتبسة، فنجد أن سقف متكون من بلاطات حجرية (الشكل 05)، واعتقد الباحث قزال أن بعض سقوف هذه المعالم كانت مبنية بالأجر المبلط والقرميد مثل ضريح تيمقاد، لكننا لم نعثر على أية حالة مؤكدة في الجزائر، عندما تكون المقاسات معتبرة فمن المحتمل أن المعلم يكون كذلك.

² - RENAN (E), Mission de Phénicie, 1864, p. 77.

³ - GSELL (S), Les monuments antiques de l'Algérie, T. II, p. 58.



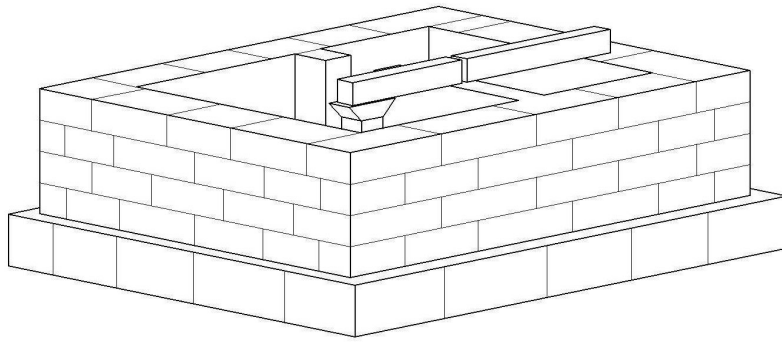
الشكل 04: الواجهة الأمامية
لضريح رأس العيون.



الشكل 03: الواجهة الأمامية
لضريح مورسط.



الصورة 02: ضريح مداوروش.



الشكل 05: منظر ثلاثي الأبعاد لضريح فليكس بولكس (كيسا).

وأخيرا مجموعة معالم تنتهي أو تحمل في علوها على حنية أو قبة نصف دائرية، مثل ما لحظناه بضريح قصر الأحمر بمداوروش وقصر تنفست بتمقاد (الشكل 06 والشكل 07).



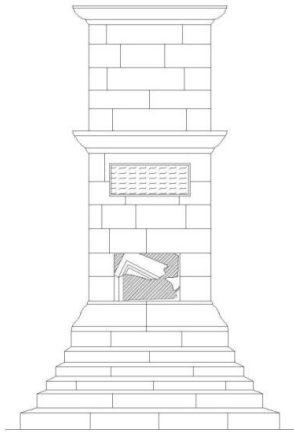
الشكل 07: الواجهة الأمامية لضريح تتسفت.



الشكل 06: إعادة تصميم الواجهة الأمامية

لضريح قصر الأحمر.

أما الطابق العلوي لبعض الأضرحة فكان بمثابة معبد صغير أين تجري وتقام شعائر جنائزية وتكون الغرفة الجنائزية في هذه الحالة في الطابق وفي العديد من المعالم أيضا نجد أن الطابق العلوي بمثابة غرفة مغلقة تماما كما هو الحال بضريح صومعة الخناق بتبسة (الشكل 09) بضريح أولاد سلامة بضواحي سور الغزلان (الصورة 03).



الشكل 09: الواجهة الأمامية لضريح صومعة الخناق.



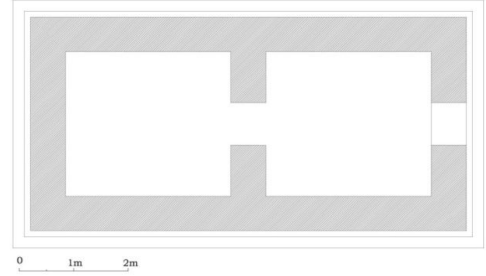
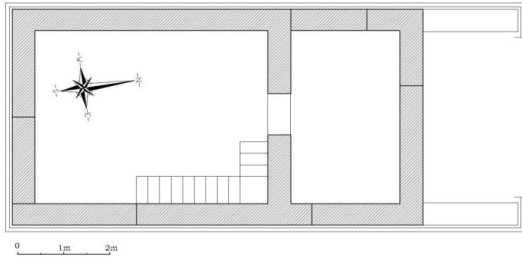
الصورة 03: ضريح غرفة أولاد سلامة.

عن: LAC DE BOSREDON (Capitaine),

« Notices sur quelques monuments de l'occupation romaine dans le cercle de Tebessa », In RSAC, T. 16, 1873-1874, p. 58.

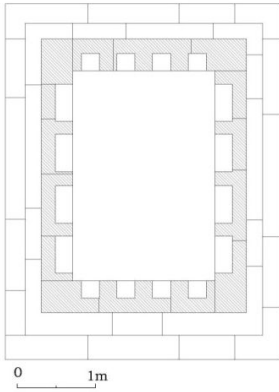
وفي بعض الحالات تضم هذه الغرفة العلوية والتي هي على شكل مقصورة كوات عديدة تحمل تماثيل الميت مثل ما لاحظناه بأحد أضرحة روسيكاد (سكيكدة). ومن النادر جدا أن نجد آثار سلم مؤدي إلى الطابق العلوي، لكن الباحث لوفو⁴ أكد على وجود سلم في أحد أضرحة شرشال.

أما الغرف الجنائزية فغالبا ما تكون على مستوى سطح الأرض، واحتوت بعض الأضرحة في حالات معينة على غرفتين وجدت مهيأة على مستوى سطح الأرض أو على مستوى درجات القاعدة، لاحظنا ذلك في مخططات ضريح تنفست وضريح زانا (المخطط 01 والمخطط 02).



مخطط 02: مقطع أفقي لضريح زانا في مستوى الطابق الأرضي.

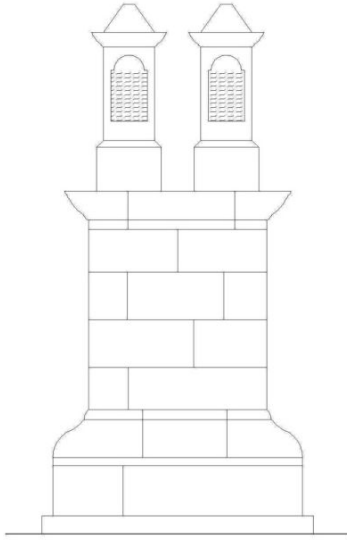
مخطط 01: مقطع أفقي لضريح قصر تنفست.



يكون مدخل الغرفة الجنائزية على الواجهة الأمامية، وغالبا ما يكون ضيق وموجه شرقا. وعادة ما تضم هذه الفضاءات الداخلية (الغرف الجنائزية) على توابيت مخصص للدفن العادي، أو على جرار فخريه جمعا فيها رماد الميت الناتج عن عملية الحرق الكلي للجثة والموضوعة داخل كوات منحوتة على جوانب الغرفة الجنائزية، كما في معلم رأس العيون بتبسة مثلا (المخطط 03).

مخطط 01: مقطع أفقي لضريح رأس العيون.

LEVEAU (P), Caesarea de Maurétanie, Une ville romaine et ses compagnes, Coll. EFR, -⁴ 1984, p. 104.



ومن المعالم الفريدة من نوعها والتي يمكن تسميتها بالأضرحة هي معلم فيجت القروزة المتواجدة على بعد 50 كم جنوب مدينة تبسة والذي يتربع على قاعدة تحمل طابق أرضي يصل علوه الى 2.10م وعرضه 1م. يعلوه شاهدان متشابهان تماما، عليهما نقishtان جنازيتان (الشكل 10).

أشار بعض الباحثين الى وجود معالم عديدة يصعب تحديد هويتها راءها البعض كأبراج للمراقبة كالتي ذكرها الباحث مارشند⁵ في ضواحي وهران والتي هي على شكل أبراج دفاعية مربعة الشكل. وبالإضافة الى بعض الباحثين الذين تحدثوا عن معالم هنشير الحمام بقالما وأولاد سلامة بسور الغزلان يصفونها بالمعالم الدفاعية.

الشكل 10: الواجهة الأمامية لضريح فيجت القروزة.
عن: LAC DE BOSREDON (Capitaine), « Notices sur quelques monuments de l'occupation romaine dans le cercle de Tebessa », In RSAC, T. 16, 1873-1874, p. 58.

وفي بعض الحالات نلاحظ وجود سور خارجي لحماية المعالم، ويحدد بذلك فضاء تابع للمعلم نفسه مثل أحد معالم سكيكدة الذي يأخذ شكل مستطيل بأبعاد 27.40 على 20م، ومعالم أخرى مثل معلم سطيف المعروف بالاسم المبالغ فيه Scipion، لكن السور يعود الى فترة متأخرة، ويظهر جيدا أنه كانت له وظيفة دفاعية عسكرية بينما ضريح أولاد سلامة فهو يتواجد داخل فضاء مربع الشكل بحوالي 24م على 24 م، أين نجد علو السور الخارجي ضئيل جدا، ولا نعتقد أن هذا السور كان له نور دفاعي بل كان يحدد فضاء جنازي.

زينت معظم هذه المعالم الجنازية بزخارف معمارية تمثلت في أعمدة تكون في غالب الاحيان في الزوايا الاربعة للمعلم مثل قرقر، ومورسط وواد جرمان... الخ، وفي بعض الحالات تظهر وسط الواجهات مثل معلم خنشلة أين نجد ظهور أعمدة بارزة على جوانب المعلم وفي بعض الاحيان نجد هذه الاعمدة تتقدم المقصورة المكونة معبدا صغيرا. أما التيجان فكان الطراز الكورنشي أكثر انتشار نظرا لتطابق تاريخ معالمنا مع العصر الذهبي للطراز الكورنشي عند الرومان. وهذا لا ينفي وجود التاج الايوني في بعض المعالم مثل ضريح أقبو. كما زينت هذه المعالم بنتوءات وكرانيش.

أما الزخرفة المنحوتة فوجدت على بعض المعالم، وتمثلت في زخارف نباتية، والصور المختلفة والرمزية للموت. وتتميز المعالم الجنازية الموجودة بشمال إفريقيا، باستعمالها لمادة الحجارة المصقولة،

⁵ - MARCHAND, In Bulletin SGA d'Oran, 1895, p. 212.

بعضها يضم طابقين (طابق أرضي وطابق علوي) والآخر لطابق واحد يضم الغرفة الجنائزية سواء كانت تحت مستوى سطح الأرض أو على مستوى الطابق الأرضي نفسه. كما تظهر مجموعة أخرى أكثر رفاهية وأكثر عناية من حيث العمارة، فتظهر على قاعدة مرتفعة نوعا ما مثل معلم اكوزيزم، ومعالم هنشير الحمام بـ"قالما" وفلافيوس بـ"لمبيز" ولم يتجاوز تاريخ هذه المعالم الجنائزية القرن الثالث ميلادي.

قائمة المراجع:

- 1- LAC DE BOSREDON (Capitaine), « Notices sur quelques monuments de l'occupation romaine dans le cercle de Tebessa » In RSAC, T. 16, 1873-1874, pp. 53-76.
- 2- GSELL (S), Les monuments antiques de l'Algérie, T II.
- 3- LEVEAU (P), Caesarea de Maurétanie une ville romaine et ses compagnes coll ,EFR, 1984.
- 4- MARCHAND, Bulletin d'Oran, 1895.
- 5- RENAN (E), Mission de Phénicie ,1864.
- 6- VITRUVÉ, De Architectura, 11, 9.